كتاب معالجة الذنوب

الباب الأول: في معالجة خوف الخاتمة.

الباب الثاني: في معالجة حب الدنيا.

الباب الثالث: في علاج الغفلة.

الباب الرابع: في علاج الشهوة.

الباب الخامس: في علاج نظر العين.

الباب السادس: في علاج فضول القول.

الباب السابع: في علاج الكذب.

الباب الثامن: في علاج الغيبة.

الباب التاسع: في علاج الغضب.

الباب العاشر: في علاج الحسد.

الباب الحادي عشر: في علاج البخل.

الباب الثاني عشر: في علاج الحرص والطمع.

الباب الثالث عشر: في علاج الجاه والحشمة.

الباب الرابع عشر: في علاج الكبر والعجب.

الباب الخامس عشر: في علاج الرياء.

الباب السادس عشر: في علاج مذمة الخلق.

الباب السابع عشر: في علاج المذموم.

الباب الثامن عشر: في إحضار القلب في الصلاة.

الباب الأول

في معالجة خوف الخاتمة

بسم اللّه الرحمن الرحيم. اعلم أن سوء الخاتمة محذور ولها تفتت أكباد الصديقين، فإن الموت أمر عظيم، ووداع الدنيا وجع أليم، والفطام عن هذه المألوفات شديد، وبين يدي كل بر وفاجر عقبات صعاب، فغدها يخشى نزع الإيمان ولها أسباب كثيرة، ولكن أخوفها وأصعبها شيئان اثنان: أحدهما: بدعة مترسخة في القلب، متشبثة في جوانب الصدر، ينقضي عليها طول الدهر ومدة العمر، يعتقد أنها حق فإذا هي باطلة، فإذا كشف لصاحبها في وقت الموت وكشف له القناع تبين من بكى ممن تباكى[1]، ويظهر له أن ما اعتقده كان باطلا، وأن ما تركه وهجره كان حقا، فيخشى عليه زوال الإيمان.

والثاني: أن يكون إيمانه ضعيفا، ومحبة الدنيا غالبة على قلبه، ومحبة اللّه ورسوله ضعيفة في قلبه، فإذا رأى أنه مسكوب من جميع الشهوات[2] ممنوع من سائر اللذات قهرا، ويحمل إلى دار لا رغبة له فيها ويذوق شرابا لم يذقه، فيكره جميع ذلك، ويكره الموت، ويكره أمر اللّه وأمر رسوله، ويكره مفارقة الدنيا والموت، فحينئذ يخاف عليه نزع الإيمان؛ فكيف يكون ضعيف الإيمان يا أشعري؟

قلت: الإيمان كالشجرة وأغصانها الأعمال، فإذا فسدت الأغصان وجفت تفسد الشجرة لا محالة، في الخبر: «أن جبريل وميكائيل بكيا بكاء شديدا عظيما،

---

(١) شطر بيت تمامه:

إذا انسكبت دموعٌ في خدود تبيَّن من بكى ممن تباكى

(٢) شبَّه انسلاخه من الدنيا بانسكاب الماء من الكوب، فكذلك هو تخرج روحه بعيدةً عن ملاذاتها وشهواتها وتنسلخ عن الجسد وتفارقه غير أن لها به تعلق ما، فينعم الجسد بنعيمها ويعذب بعذابها.

فأوحى تعالى إليهما: ما لكما تبكيان أليس قد أمنتكما؟ قالا: بلى، ولكنا لا نأمن مكرك، فقال الله تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكرى» يا هذا، ومن الذي أعطى له الأمان، هذا عزازيل[١] بعد عبادة سبعة آلاف سنة قد لعن وهجر، وهذا هاروت وماروت قد علقا يعذبان[٢]، وهذا عزير[٣] عوتب، فقيل: لو راجعت في سر القدر

---

(١) عنى به إبليس، فهذا اسمه في الملائكة قبل أن يلعن ويطرد.

(٢) هاروت ومارت: أخرج أحمد بن حنبل، وعبد بن حميد في "مسنديهما"، وابن أبي الدنيا في "العقوبات"، وابن حبان في "صحيحه"، والبيهقي في "شعب الإيمان" عن عبد الله بن عمر، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن آدم لما أهبط إلى الأرض قالت الملائكة: أي ربِّ، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ قال: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم، قال الله تعالى: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان، فقالوا: ربنا هاروت وماروت؛ فأهبطا إلى الأرض، فتمثلت لهما الزُهرة؛ امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تكلما بهذه الكلمة من الإشراك، قالا: لا والله لا نشرك بالله أبدًا، فذهبت عنهما، ثم رجعت بصبيٍّ تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فوقعا عليها، وقتلا الصبي، فلما أفاقا، قالت المرأة: والله ما تركتما شيئا أبيتما عليَّ إلا قد فعلتماه حين سكرتما، فخيِّرا عند ذلك بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا». وأخرج الحاكم في "المستدرك"، وصححه ابن عمر أنه كان يقول: إن ملكين من الملائكة هاروت وماروت سألا الله أن يهبطا إلى الأرض، فكانا يقضيان بين الناس، فإذا أمسيا تكلما بكلمات؛ فعرجا بها إلى السماء، فقيض الله لهما امرأةً من أحسن الناس وألقيت عليهما الشهوة، وألقيت في أنفسهما فلم يزالا حتى وعدتهما ميعادًا فأتتهما للميعاد، فقالت: علماني الكلمة التي تعرجان بها، فعلماها فتكلمت بها، فعرجت إلى السماء، فمسخت فجعلت كما ترون، فلما أمسيا تكلما بالكلمة فلم يعرجا، فبُعث إليهما: إن شئتما فعذاب الآخرة، وإن شئتما فعذاب الدنيا، فقال أحدهما لصاحبه: بل نختار عذاب الدنيا. قوله: (كما ترون) أي: كوكب الزهرة. الحبائك في أخبار الملائك – للإمام السيوطي – ط١ الأزهرية للتراث – ص ٤٧.

(٣) هو الذي نزلت فيه الآية: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.
روي أنه مات ضحىً وبعث بعد مائة سنة قبل غيبوبة الشمس، فقال قبل النظر إلى الشمس: «يومًا» ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: «أو بعض يوم» وروى أن طعامه كان تينا وعنبًا، وشرابه عصيرًا ولبنًا، فوجد التين والعنب كما جُنيا، والشراب على حاله لم يتغير ولم تغيره السنون، وكان له حمار قد ربطه فمات وتفتت عظامه فجعله الله سالمًا إذ ذاك في مكانه كما ربطه وأحياه. قيل: أتى قومه راكبًا حمارًا، وقال: أنا عزيرٌ، فكذبوه، فقال: هاتوا التوراة، فأخذ يقرأها عن ظهر قلبه، ولم يقرأ التوراة ظاهرًا أحد قبل عزير. فذلك كونه آية.
=

لأمحون اسمك من ديوان الأنبياء، وهذا سليمان ابتلى[١]، وهذا عيسى قد افتتن بسببه، وهذا داوود قد ابتلي، وبلعام وبرصيصا قد اشتهر شأنهما، وهذا محمد ﷺ قد عوتب[٢].

فالعبد إذا عشق الدنيا وأعرض عن أمر الله صفحا، فإذا دعي إلى فراق الدنيا يكره رؤية داعي الله، ويكره الموت فتغلب عليه الشقوة فيخسر خسرانا مبينا والله الموفق.

الباب الثاني

في معالجة حب الدنيا

اعلم أن حب الدنيا ينبعث من طول الأمل، فإن الإنسان يقول: الأيام بين يدي وأفعل غدا وسأفعل بعد غد وأتمتع بالدنيا، ثم أتوب وأبني هذا القصر وأجمع الأموال وأجازي وأكافئ فلانا، وأتولى أمرا ورياسة، وأستنفذ فيه عنفوان شبابي،

=

وقيل: رجع إلى منزله فرأى أولاده شيوخا وهو شاب. تفسير النسفي – لأبي البركات النسفي – سورة البقرة الآية (٢٥٩) – الجزء الأول – ص ١٧٣، ص ١٧٤.

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [ص: ٣٤]. قيل: قيل فتن سليمان بعدما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة، وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السُخرة، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله، فعلم ذلك سليمان عليه السلام، فكان يغذوه في السحاب خوفا من مضرة الشياطين، فألقي ولده ميتا على كرسيه، فتنبه على زلته أن لم يتوكل فيه على ربه.
وروي عن النبي ﷺ قال: قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة منهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله. فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، فجيء به على كرسيه فوضع في حجره. فوالذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون.
وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام فمن أباطيل اليهود. تفسير النسفي. (سورة ص الآية ٣٤) الجزء الثالث والعشرون – ص ٢٠٧.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة: ٤٣].

ثم إذا جاء الهرم أتوب وأرجع إلى اللّه، وأكون جامعا بين الدنيا والآخرة، وهو كل يوم يتمنى هذا، والأجل يضحك على الأمل، والتقدير على التدبير، والمنى رأس أموال المعايش.

يؤمل أن يعمر عمر نوح وأمر اللّه يحدث كل ليلة[١]

ولا يعلم المسكين أن دون طلباته القتاد والخَرْط، وكم من مؤمل يوم لا يستكمله، وكم من مخترم في عنفوان شبابه، وكم من حسرة تحت التراب، فالآدمي خطاء وَسَنَانٌ لا يذكر الموت البتة، فإن كان شابا يقول أهيئ أمر المعاد في الكبر، وإن كان شيخا فيقول: الأيام بين يدي.

علاج ذلك: أن يقول: الموت ليس بيدي، فكيف أعتمد على الحياة؟ فربنا تعالى قضى، والموت لا يتأخر بكراهيتي ولا يقف بإرادتي، فكيف أسوف نفسي بالتوبة؟ ويقول: لذة الدنيا تنقطع بالموت لا محالة، وهي أيام معدودات وأتجر في أيام غير معدودات وأبيع الذهب بالخزف، ولذة الدنيا مكدرة ولذات الآخرة صافية مخلدة، ومن باع الآخرة بالدنيا فيكون مثاله مثال من يكون درهم واحد أحب إليه في المنام من دينار في اليقظة، والدنيا أضغاث أحلام[٢].

علاج آخر: يقول هبني جمعت الدنيا من كيت وكيت، أليس عند الموت يؤخذ الكل مني؟ وأُسأَلُ عن الكل فأي مسكين أحوج مني؟! أجمع الدنيا للأولاد وأبوء بحسابها وسخط ربي، تلك إذا قسمة ضيزى، ذلك هو الخسران المبين، أجمع الدنيا للوارث، فيكون له مناه وعليّ وباله، هذا هو الضلال المبين.

علاج آخر: إن من كان دنياه أَكْثَرَ فنزعه وحسرته لدى الموت أشد، ومن كان دنياه أخف فأمره أسهل، وصاحب الدرهمين أشد حسابا من صاحب الدرهم،

---

(١) البيت من بحر الوافر.
(٢) في الحديث: «الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا».

ويتذكر قوله: «حلالها حساب وحرامها عقاب»، ومن ترك درهما فقد ترك كَيَّةً.

علاج آخر: ينظر في نفسه فيرى أن عمره ينقص وماله يزداد، وكل نَفَسٍ يخرج منه لابد له من عِدَاد، وكل يوم هو قريب إلى الآخرة بعيد من الدنيا وهو مترقب أن يخطف في كل لحظة، فالتَّوَى مُقبل[1].

فالموت آت والنفوس نفائس والمستعز بما لديه الأحمق[2]

وإن على رأسه ملكين موكلين يقولان: الرحيل، الرحيل.

علاج آخر: يزور أهل القبور وينظر في مصارع الآباء والأمهات، ويتفكر أنهم كانوا في مثل مقامه وموضعه، ومثل شبابه وآماله، فاختر موا ولم يبلغوا ما أملوا، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، فهم اليوم في حسرات وزفرات يقولون: يا حسرتا على ما فرطت في جنب اللّه، وينظر إلى موت الإخوان والقرناء، فلو كان عاقلا فموت الرجل موت قرنائه، وينظر إلى نفسه واختلال قوّته وضعفه واشتعال الشيب الذي هو بريد الموت، فإن لم يعتبر بهذا يعتبر بالذين هم أصل له وهو فرع لهم، فما بقاء الفرع مع ذهاب الأصل، وإن لم يتعظ بهذا فقد مات آدم صفي اللّه، ومات نوح، ومات إبراهيم خليل اللّه، ومات موسى كليم اللّه، ومات عيسى روح اللّه، ومات محمد حبيب اللّه، فكيف البقاء بعدهم؟! ومن يأمن على نفسه فإن لم يعتبر بهذا فاعلم أنه مطبوع على قلبه ما في عالم اللّه أجهل منه.

---

(١) أي: فالموت قادم.
(٢) البيت من بحر البسيط.

الباب الثالث

في علاج الغفلة

اعلم أن الغفلة سِتْرُ اللّه العظيم، وهو حجاب الآخرة، ولولا الغفلة لرأى كل مؤمن عيب النفس، ولاشتغل كل أحد بشأنه وما تهنى بالعيش والحياة، ولكن اللّه رحمهم بالغفلة، فلا جرم أصبحوا غافلين، فمن كل مائة رجل ترى فيهم رجلا مستيقظا، يتناحرون أنفسهم، ويتكالبون على الدنيا للغفلة، ويتخاصمون للدنيا.

علاج ذلك: أن تقول: الموت يقين، والحياة شك، فكيف نترك اليقين بالشك ونحن أقرب إلى الموت والقبر منا إلى الحياة؟ فإن اللّه سبحانه قدّم الموت على الحياة، فقال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الملك: ٢] ويقول: إن العمر قليل فالجمع والمنع لأي شيء ولأي طلب؟ وإذا انتقص العمر وازداد المال فلأي شيء أحرق نفسي؟.

علاج آخر: تقول: الأنبياء والأولياء كانوا أعلم مني، قنعوا بالقوت ورضوا بالكفاف، وما طلبوا الدنيا، فلماذا أحرق نفسي بنار الحرص؟ ومن ساعة إلى ساعة فرجٌ، وأين الملوك وأعوانهم؟ وأين الجبابرة وقرناؤهم؟ وأين الإخوان والمعارف؟ أين هم أين هم؟ فرق الدهر بينهم.

علاج آخر: تقول: هب أنك ملكت الدنيا بأسرها، وصفا لك عنبها وزلالها، وأدركت الأماني، أليس آخر ذلك الموت وعاقبته الفوت؟ فكم أصبح غافلا وأمسي جاهلا؟!.

علاج آخر: ينظر إلى مصارع الآباء والأمهات ويجلس بين قبرين. ويقول لنفسه: إنها القبر الثالث كأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل، كأنك بالحياة لم تحضر وبالممات لم تغب، انتبه فإن العيش أضغاث أحلام، يا ابن التراب، ومأكول

التراب، ما هذا الغرور بالغرور، انظر إلى حسرات إخوانك، وانظر إلـــى أيتـــامهم المساكين وأموالهم المبددة وأزواجهم المتروكة.

علاج آخر: تنظر في المحاريب وقد خلت عن المتهجدين والدور، وقد خلت عن إخوانه وقراباته كأن لم يولدوا ولم يعرفوا ذهبوا ودرجوا، فيقول لنفسه: انتبه قبل أن يكون حالي مثل حالهم.

حكاية: مر عيسى صلوات اللّه تعالى عليه فرأى شـــيخا هرمـــا فـــي يـــده مسحاة[1] فتعجب من طول أمله، قال: يا رب انزع عنه أمله، فإذا بالشيخ قد طرح المسحاة واستلقى يعاتب نفسه، ويقول: يا شقي إلى متى تقتـــل نفـــسك وتخـــرب آخرتك؟ وغدا تموت، فقال: يا رب اردد إليه أمله، فما تم الدعاء حتى وثب الشيخ إلى عمله، ويقول: لابد من القوت مهما تعش، فتعجب فسأله فقال: خطر لـــي خـــاطر أنك قد أكلت الدنيا وقد شخت فإلى متى تعمل؟ فتركت العمل، ثم خطر لي أن القـــوت لابد منه، فقمت وعملت ليعلم أن بقاء الدنيا بالأمل، وأن الغفلة رحمة للعالمين.

الباب الرابع

في علاج شهوة الفرج

وقد ركّب في الآدمي هذه الشهوة ليكون متقاضيا لإلقاء البذر فـــي الأرض، وفيه تبقية النسل، ويكون أنموذجا للذة الآخرة، وآفة هذه الشهوة عظيمة، وقـــد يشتهي الرجل إلى حد يلقي جلباب الحياء، فلا يستحي من اللّه ولا مـــن الخلـــق، ويبيع ماله، ودينه ودنياه وحرمته بسببها فيصبح شيطانا مريدا.

---

(١) المسحاة: ما يسحى به الطين: أي يجرف.

علاج ذلك: أن يكسر سورة هذه الشهوة بالصوم، فإن لم تنكسر فيتزوّج، ويحفظ عينه فإن فتنة ذلك كله للشهوة، وفتنة داود عليه الصلاة والسلام كانت من النظر، وقال لقمان لابنه: «اتبع الأسود[١] والأسد، ولا تتبع المرأة» فإن لم يمكنه أن يتزوّج فليحفظ العين.

الباب الخامس

في علاج نظر العين

كل من استقبله أمرد[٢] أو امرأة فإن الشيطان يزينه في عينه ويصبح متقاضيا بأمره بالنظر فيه، والعاقل يناظر الشيطان، ويقول: لماذا أنظر؟ فإن كان قبيحا أغتم وأتأسف وآثم بالقصد إلى النظر، وإن كان حسنا فكيف أنظر وليس بحلال؟ فأبوء بعاجل الإثم والحسرة، وإذا مشيت خلفه وطلبته فربما أنال بغيتي فقد جاء الإثم ونكبات الدين.

في الخبر: «أن رسول اللّه ﷺ وقع نظره في الطريق على امرأة حسناء فذهب إلى بيته وجامع بعض نسائه ثم خرج وقال: إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فإن معها مثل الذي معها».

حكاية: اجتمع بعض الشطار، في دار مَلِكِ الأمر فخاضوا في بحار الأماني، فقال أحدهم: ليت خزائنه لي، وقال الآخر: ليت أملاكه لي، وقال الآخر: ليت امرأته كانت لي، والملك يسمع تناجيهم وكان عاقلا، فاتخذ دعوة

---

(١) الأسود: الحية العظيمة. "القاموس المحيط".
(٢) الأمرد: من لم تنبت له لحيةً ولا شعر.

وطبخ عشر قدور من السِّكْباج ووضعه بين أيديهم، وقال: يا فلان تذوّق من هذا، وتناول من هذا، وتطعم من هذا، حتى ذاق الكل، وقال: كيف وجدت طعمه؟ قال: أبقى اللّه الملك الكل في طعم واحد، فقال: يا فلان النساء كلهن بمنزلة واحدة وطعم واحد فأخجله.

الباب السادس

في علاج فضول القول

من كان مهذارا مكثارا لا يطيق السكوت فيجلس طول اليوم ويذكر حكاية سفره، وخدمته، وشبابه، ومطبخه، وزوجته، وصفة بلده، ونقوش حيطانه، كل هذا مما لا يعنيه فيتضرر به دينا ودنيا «ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

دليل ذلك: أن يعلم أن الموت قريب منه، وفي كل تسبيح وتهليل كنز من كنوز الجنة، فأي عاقل يضيع الكنز ويشتغل بالتُّرَهَات؟ وعلاج العمل أن يعتزل عن الناس، فإن السلامة في العزلة، أو يمسك حجرا تحت لسانه، واستشهد شاب من الصحابة - رضي اللّه عنهم - فنظروا فإذا بحجر مربوط في وسطه من الجوع فجاءت والدته تنفض التراب عن وجهه، وتقول: هنيئا لك الجنة، فقال ﷺ: «ما يدريك لعله بخل بشيء ولا حاجة له إليه أو تكلم بما لا يعنيه».

ومعنى الحديث: أنه يطلب منه حساب ذلك، ومن علم أن كل ما يقول ويفعل يكتب عليه، يراقب ألفاظه؛ وقال ﷺ: «كفارة كل لجاجة مع أحد أن يصلي

ركعتين» وكل مَنْ عادته الفحش فإنه يحشر يوم القيامة في صورة كلب[١]، والفرق بين الفحش، والشتم: أن الفحش أن يعبر عن المباشرة بعبارة قبيحة، والشتم أن ينسب واحدا إلى ذلك.

الباب السابع

في علاج الكذب

قال النبي ﷺ: «إن الكذب باب من أبواب النفاق»، وقال: «إن الكذب ينقص في الرزق»، وقال عبد اللّه: يا رسول اللّه، أيسرق المؤمن؟ قال: نعم، قال: أيزني المؤمن؟ قال: نعم، قال: أيكذب المؤمن؟ قال: لا ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ١٠٥]. وقال بعض الحكماء: إن لم يكن الكذب حراما أو قبيحا لكانت الحرية تقضي أن لا يكذب أحد.

علاج ذلك: أن يشترط مع النفس أن يصوم لكل كذبة يوما، فإن صبرت النفس على ذلك فيشترط أن يتصدق عن كل كذبة طَسُّوجًا[٢] فإنه يشق ذلك عليه ولا يكذب أبدا.

علاج ذلك أيضا: أن يتذكر أن بكل كذبة يقولها يهدي طاعته إلى الخصم، ويسود جريدته، ويحسب المسكين أنه في استرباح وهو في خسران فوق كل خسران، فإن لم يكن له طاعة يضع ذنوب خصمه على عاتقه، وهذه شقاوة عظيمة، ومن هذا قيل: إن السارق أحسن من الكاذب، فإن السارق يحمل شيئا إلى بيته والكذوب يبوء بإثمٍ ولعنةٍ - نعوذ باللّه من ذلك.

---

(١) والمعنى: أن الكلب يجامع من غير أن يستحي أو يتوارى من الخلق والحيوانات الأخرى، فكان من يعبر عن هذا الفعل في كلامه بعبارة قبيحة كالكلب؛ فلذلك يحشر على صورته لأن الجزاء من جنس العمل. أسأل الله العافية لي ولكل سائل لها.

(٢) الطَسُّوج: بوزن الفَرُّوج: مقدار من الوزن يساوي حبتَين، فهو عند الجمهور يساوي (٠,١١٨) جرامًا تقريبًا. المكاييل والموازين. ص ٢٣.

الباب الثامن
في علاج الغيبة

اعلم أن اللّه تعالى جعل الغيبة في القرآن بمنزلة أن يأكل لحم أخيه ميتـــا، وقال ﷺ: «الغيبة أشد من الزنى». وحقيقة ذلك أن التوبة تقبل مـــن الزانـــي ولا تقبل في الغيبة حتى يستحل المغتابُ صاحبَه. أوحى اللّه تعالى إلى موسى عليـــه السلام: «إن كل من تاب من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات قبـــل أن يتوب من الغيبة فهو أول من يدخل النار»، وفي الحديث: أن النبي ﷺ مر علـــى ميتة ملقاة فقال لأصحابه: «كلوا من هذه»، فقالوا: يا رسول اللّه، كيـــف نأكلهـــا وهي ميتة منتنة؟ فقال: «ما أكلتم من لحم أخيكم أنتن من هذا».

فصل: إن حقيقة الغيبة أن يحدّث الرجل حديث رجل في الغيبة أن لو سمعه يكره ذلك، فإن صدقتَ فهي غيبة، وإن كذبتَ يكون ذلك بهتانا، والبهتان أثقل من السماوات والأرض، فكل ما يقول بنقصان رجل يكون غيبة سواء كان في نـــسبه أو ثوبه أو داره أو فرشه أو أفعاله.

فصل: أما علاج الغيبة فأن يقرأ الأحاديث الواردة في الغيبة، ويعلم أن بكل غيبة ينقل حسنة من ديوانه إلى ديوان صاحبه حتى يصبح المغتاب مفلسا، وتزيد سيئاته بهذه الغيبة، ويساق إلى النار، والثاني: أن ينظر في نفسه فإن وجد ذلـــك العيب في ذاته فيستحي من اللّه أن يرمي أحدا بما هو فيه.

لا تنه عـــن خلـــق وتـــأتي مثلـــه عار عليـــك إذا فعلـــت عظـــيم[1]

بل يجب أن يعذر غيره بعيب هو فيه، وإن لم يعلم من نفسه مثل ذلك العيب فالجهل بعيب نفسه أعظم وأشد، وإن كان صادقا فأي عيب أعظم من أكل الميتة؟

---

(١) البيت من بحر البسيط.

فلأي معنى يلوث نفسه الطاهرة؛ فيشتغل بشكر نعمة اللّه تعالى، وأي عبد يخلو عن عيب وتقصير؟ وأي عبد لك لا ألمًّا؟،[١] وأي عبد يستقيم على حد الشرع؟ ولو كان في الصغائر، فإذا لم يطق مع نفسه ولا يسلم في نفسه، فماذا يتعجب من غيره؟، وإن كان يغتابه لتشوه خلقه فذاك عيب على الصانع - ونعوذ باللّه. والثالث: أن يعلم سبب غيبته، فإن كان قد غضب منه بسبب ما فأي حمق أعظم من أن يدخل نفسه النار بسبب غيره؟ فإن صلاحه مع نفسه. والرابع: أن يغتابه لأجل موافقة الناس.

علاج ذلك: أن يعلم أن التعرض لسخط اللّه سبحانه وتعالى لأجل رضا المخلوق جهل عظيم وحماقة كبيرة[٢].

الخامس: أن يغتابه لأجل الحسد، فعلاجه أن يعلم أن هذا اللجاج مع نفسه؛ لأنه يكون في الدنيا في عذاب الحسد، وفي الآخرة في عذاب الغيبة فيكون محروما من نعمة الدنيا والآخرة.

السادس: أن يقوم يوم القيامة تحمل عليه أوزار الخصم ويساق إلى النار كما يساق الحمار في سوقه، ومن كان حاله هذا يرجى نفسه بالهذيان.

الباب التاسع

في علاج الغضب

اعلم أن أصل الغضب من النار، وله نسبة مرتبطة بالشيطان، وأنه مخلوق من النار، وصفة النار التحرك والاضطراب، فلهذا كل من الغضب يضطرب

---

(١) أي: لم يلم بذنوب وآثام.

(٢) في الحديث: «من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه، ومن أسخط الناس برضا الله رضي الله عنه.

ويتحرك بحيث لا يملك نفسه، ولقد خلق اللّه الغضب في الآدمي ليكون له سلاحا في دفع ما يضره عما ينفعه، كما خلق فيه الشهوة لتكون آلة له في جذب ما ينفعه ولا بد له من هذين الجنسين الغضب والشهوة، ولكن إذا كان مسرفا في ذلك يضره فإذا فهمت أن الغضب للّه فلا يجوز أن يتولى عليه حتى يسلب اختياره، ولا يجوز أن يقلعه بالرياضة، وأنى له التناوش من مكان بعيد ولم يخل عنه رسول ﷺ، فقال: «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر».

علاج الغضب فريضة، فإن أكثر الخلق إنما يدخل النار بسببه، وعلاجه من وجهين: أحدهما: أن ينظر في سبب الغضب في باطنه فيقع في هاتيك الأسباب، وأسباب ذلك خمسة: الأول: الكبر تكسره بالتواضع وتعلم أنه من جنس العذاب والناس كأسنان المشط وإنما يتفاضلون بالأخلاق. والثاني: العُجْب، وتفسير العجب استعظام نفسه، وهو أن يرى نفسه عظيما بين الخلق، أعطي شيئا لم يعط لأحد من الخلق، وعلاج ذلك أن يعلم نفسه بأنه نطفة قذرة، وآخره جيفة مذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة[1]. الثالث: المزاح؛ فيشتغل بقول الجد والأعمال المهمة. والرابع: الملامة والتعيير وعلاجه أن يعلم أن كل أحد لا يخلو عن عيب، والذي لا عيب له هو اللّه تعالى، فليس لأحد أن يعيب أحدا. والخامس: الحرص في طلب الجاه والمال فإن البخيل يغضب في حبة واحدة، وإذا غضب السوقي فالحبة ترضيه، وعلاج الغضب علمي وعملي. أما العلمي: فأن يعلم آفة ذلك في دينه ودنياه فيقوم بمخالفة هذه الصفات، فروح العلاج في كل باب هو المخالفة؛ إذ بضدها تتبين الأشياء.

---

(١) وقد قال الإمام ابن سيرين لعمر بن عبد العزيز - رحمهما الله - يوم أن رآه يمشي ويتبختر في مشيته: عَلامَ تتكبر وأنت تحمل الخراءة في بطنك؟! قال: يا عمّ هذه مشية درجت عليها منذ أن كنت صغيرًا. يعني: لم يتعمد بها كبرًا ولا زهوًا على أحد، فويل للمتكبرين.

الثاني: أن يقرأ الآيات والأخبار الواردة في ذلك التي وردت من كظم الغيظ والعفو عن الناس، ويقول في نفسه اللّه أقدر عليك منك على غيرك، فإن غضب عليك فما يؤمنك منه؟! ومخالفتك مع اللّه أكبر من مخالفة هذا المسكين معك.

والثالث: يقول لنفسه إنما تغضب عليه لجريان أمر جرى على خلاف محبتك وهواك، وقد أراد اللّه أن يكون ذلك فأنت لا تريد ولا تحب إرادة اللّه تعالى، فأنت منازع مع الربوبية.

الرابع: أن يقول لنفسه إن شفيت غيظك، فيتصدى هو ويقول عن واحدة عشرا ويسقط حرمتك، فقد قيل: «عظموا أنفسكم بالتغافل»، أو يكايد معك بأمر لا تطيقه فتبقى حقيرا مهينا عند الناس فتقول: لا عز في عالم اللّه فوق رضا اللّه والاقتداء بأنبياء اللّه فاحلم.

وأما العلاج العملي: فأن يقول بلسانه: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، وأن يجلس إن كان غضبه في حالة القيام، أو يضطجع إن كان في حالة الجلوس، فإن لم يسكن بهذا فالماء البارد يتوضأ به يسكنه بفتوى الرسول ﷺ : «فإن الغضب من النار وإنما يسكن بالماء»، وقيل: يسجد على التراب فيذكر أنه مخلوق من التراب لا يستحق الغضب.

الباب العاشر

في علاج الحسد

فليعلم أولا أن الحقد نتيجة الغضب، والحسد نتيجة الحقد، والحسد من المهلكات قال النبي ﷺ: «إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» وقال: «ثلاثة أشياء لا يخلو منها أحد: ظن السوء، والطِّيَرَة، والحسد».

فصل: وحقيقة الحسد أن يكون لواحد نعمة فيحب زوال نعمته وهذا حرام

لأنه كراهية اللّه سبحانه، وهذا دليل خبث الباطن لأن نعمته لا تكون لك ولا هـي منتقلة إليك، فمحبة زوالها عن صاحبها لا تكون إلا من الخبث.

أما الغبطة، وهي أن تريد أن يكون لك مثل تيك[1] النعمة والدولة والجـاه، ولا تكره ذلك على صاحبه، فلا يكون حسدا بل غبطة ومنافسة.

علاج الحسد أمران اثنان: علمي وعملي. أما العلمي: فـأن يعلـم الرجـل الحاسد أن الحسد يضره دنيا وآخرة، ومضرّة الحاسد في الدنيا أن يكون مغمومـا ذا عذاب وحسرة لا يخلو عنه أبد الدهر، فيكون بصفة يهواها عدوّه وخصمه، فلا غم ولا هم أعظم من الحسد، فأي حمق أعظم من أن يشتغل بقتل نفسه ولا يشعر، وإن ظن أحمق أن تزول نعمة المحسود بحسده فالخسارة أيضا ترجع عليه فتزول منه نعمة الإيمان بسبب حسد الكفار، وأما مضرة الآخرة فأن يعلم أن حسده فـي قضاء اللّه وإنكاره في قسمة اللّه، وأحب للمسلمين السوء والخـسارة، وشـارك إبليس في استغواء الناس.

فصل: أما الذي ينفع المحسود في الدنيا فهو أن يتمنى طول الدهر أن يرى عدوه في العذاب والحسرة، وقد رأى ما أحبه فيه من العـذاب الأليـم والكـرب العظيم، فالذي لم يتيسر له في عسكر قد تعاطاه الحسد وفعل بنفـسه، ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وأما منفعة الدين للمحسود فإنه أصبح مظلومـا من جهة الحاسد، وقد يتعدى الحسد إلى اللسان والمعاملة، فتؤخذ حسناته غـدا وتعطى للمحسود، أو تنقل سيئات المحسود فتوضع في رقبة الحاسد، فانظروا يـا معاشر الرؤساء إلى هذه المعاملة التي هي السَّوْأة السُّوأى أراد الحاسد أن يـضر المحسود ويزيل نعمته فقد أضر بنفسه وأصبح ذليلا مهينا فقيرا مفلـسا كحمـار يطلب قوته فجدعت أذناه، أراد أن يضربه فضرب نفسه أو أن يبطش بـه فأخـذ بأذن نفسه، هو في راحة وهذا في عذاب، وقد ظن في نفسه أنه عدو المحـسود

---

(١) تيك: اسم إشارة بمعنى هذه.

وصديق نفسه، فإذا هو صديق عدوه وعدو نفسه.

تبت يدا صفقة قد خاب شاربها[١]

ومثال الحاسد مثال من يرمي حجرا إلى عدوه فينكسر الحجر، فأصاب العين اليمنى من الرامي، فاشتد غضبا فرمى ثانيا فعاد إلى عينه اليسرى، فعمي بسبب نفسه، فرمى ثالثا فعاد وشَجَّ نفسه، هكذا يرمي ويعود إليه، والمرمي إليه جالس بالسلامة يضحك عليه.

أما العلاج العملي: فأن يقلع عن نفسه أسباب الحسد من الكبر والعجب والعداوة ومحبة الجاه والمال، ويقوم بمخالفة الحسد، ويثني على المحسود في غيبته، وهذا مركب شنيع لا يستعمله إلا العظماء، ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

الباب الحادي عشر

في علاج البخل

اعلم أن محبة المال فتنة عظيمة؛ ولهذا سماه الله عَقَبَةً، وما من عقبة من العقبات أصعب من هذه، فيه قضاء الشهوة، وفيه زاد الآخرة؛ إذ لا بد من القوت واللباس والمسكن، ولا يتيسر هذا إلا بالمال، فليس في إعوازه وعدمه صبر، ولا في وجوده وحصوله سلامة، فليتعجب العقلاء من هذه الداهية الدهياء. فإن أعوزه وافتقر ينادي الشرع: «كاد الفقر أن يكون كفراً»[٢]، وان وجده وحفظه يعاتبه القرآن، وربنا سبحانه يقول: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، ويقول: إن مال البخلاء الأشقياء يصور بصورة، أفعى ويطوق ذلك في عنقه حتى يلتوى في صفحات عنقه فيلدغه لدغا وينهشه نهشا، وينادي مناد: ذق أيها

---

(١) شطر بيت من بحر البسيط.

(٢) هذه المقولة تنسب إلى سيدنا علي ﷺ، وكرم الله وجهه.

الطاعم الكاسي، ذق إنك أنت العزيز الكريم، وتجعل كنوزه وذخائره سَـفُودا[١] أو سبائك يكوى به جبينه وجنبه وظهرهُ، مسكين البخيل يظن أنه شيء ومـا هـو شيء، فما في عالم اللّه أشقى منه، قال ﷺ: «البخيل لا يدخل الجنة»[٢].

وقد قابل اللّه سبحانه البخل بالكفر في كتابه فقال عز وجـل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾ [الليل: ٨ – ٩] ورأى رسول اللّه ﷺ، بخيلا قـد أخـذ بحلقة الكعبة يدعو فقال: «تنح لئلا يصيبني شؤمك وحريقك» فمن لم يؤمن بهذه الآيات فهو إذًا دهري فليستأنف الإيمان. علاج آخر: يقول: إن الموت حق وهـو آت لا محالة، والعمر يذهب كالخيال فما ينفعني أن أموت والمـال فـي الجـرَاب والصُّرَر تحت الأرض وأنا مسئول عنها. علاج آخر: أن يتصدق ويهب لينال بكل درهم أجرا عظيما. علاج آخر: يتأمل في عاقبة البخلاء، كيف ماتوا في الحانـات والطرقات مدامير[٣] مناحيس[٤]، وأخذ ما لهم سلطان ظالم أو عدوهم، جمعه ذليلا مهينا، وأكله الوارث هنيئا مريئا، من يشتري مني ما ترك عاد وثمود بدرهمين؟.

علاج آخر: أن البخل نتيجة طول الأمل، فإن البخيل لو علم أن عمره قصير لأنفق ماله، فيعالج طول الأمل بالنظر إلى إخوانه وأقرانه، كيـف جمعـوا المـال وغفلوا عن هازم اللذات؟ فقد جاءتهم المنية فماتوا متحسرين، وأكـل أمـوالهم أعداؤهم بالهزء والسخرية، وإن كان بخله لأجل حاجة أولاده فيقول: الذي خلقهم يرزقهم ويعطيهم، فإن قدّر عليهم الفقر فلا يستغنون ببخله وشـقاوته، وإن قـدّر لهم الغنى فيستخرج ذلك من وجه آخر، فكم من غني لم يرث مـن أبيـه فلـسا

---

(١) سَفُودًا: على وزن (تَنُّور)؛ أي: حديدة يشوى بها. "القاموس المحيط".
(٢) أي: لا يدخل مع أول الداخلين، أي: حتى يستوفي عذابـه والحقـوق التـي منعهـا عـن مستحقيها. أو يلحقه عفو ربه ومغفرته.
(٣) أي: هالكين.
(٤) أي: مشئومين في ظلمةٍ من العيش.

واحدا، وكم من فقير ورث من أبيه ألوفا وضيع.

الباب الثاني عشر

في علاج الحرص والطمع

وذلك من خمسة أوجه: بُضع يمسكه من العيش، بلباس خشن، وخبز بحت ومسكن مختصر، فإذا اقتصر على ذلك، فقد قال ﷺ: «نجا المُخِفُّون»، وإن أراد التجمل والتمرغ في الدنيا فقد جاءت الأشغال والأهوال.

الثاني: إذا وجد الكفاية فلا ينظر إلى مجيء الغد، فإن الشيطان يوسوسه ويقول: ماذا تفعل غدا وبعد غد، ويجره إلى طول الأمل، يريد الشيطان أن يوقعه في تعب عاجل؛ مخافة أن يقع في تعب آجل، فقد لا يجيء الغد في حقه، وإن جاء فلا يكون تعبه فوق التعب الذي هو فيه.

والعلاج الكلي: أن يعلم أن الرزق لا يزيد بسبب الحرص.

علاج آخر: أن يعلم أنه إن صبر وقنع يعز في ذلك، وإن طمع ولا يصبر فيصير ذليلا متعبا، فمع حيازة آجُرّ[1] هو أولى ممن يكون في خطر العُقَاب[2]، فإن التعب مع عز النفس أولى من كنز معه مذلة ومهانة.

علاج آخر: أن يتأمل في هذا الحرص ما سببه؟ وما داعيته؟ فإن كان حرصه لأجل شهوة الفرج فالدب والخنزير أكثر نكاحا منه، فلماذا يقتل نفسه لأجل بنيه وبناته؟ فكم من يهودي ونصراني أحسن ثيابا منه وأثاثا، فإن قنع وارتضى باليسير فنظيره الأنبياء والأولياء، فإن كان عاقلا فيقتدي بالأنبياء والصالحين دون

---

(١) أي: بيت يحيط به من الحجر الجيري.
(٢) أي: طائر يفترسه وهو في العراء لم يجد بيت جحر يأويه.

الكفرة والأشقياء.

علاج آخر: أن يخاف من فتنة المال، فإن المال إذا كثر يكون في الدنيا في خطر، وفي الآخرة يدخل الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام، فلينظر الإنسان إلى من دونه في الدنيا، ولا ينظر إلى أثاث المترفين كي لا يزدري نعمة الله عليه.

الباب الثالث عشر

في علاج الجاه والحشمة

اعلم أن حقيقة الجاه: ملك القلوب، وصاحب الجاه هو الذي تكون قلوب الناس مسخرة له، وإذا ملك أزمة القلوب، فالمال تبع لذلك، ولا تصير القلوب مسخرة له إلا بخصلة من الخصال المحمودة: إما العلم أو العبادات أو الشجاعة أو خلق حسن، فتنطاع له الألسنة بالمدح والثناء، والأبدان بالطاعة والخدمة حتى يبذل ماله في هوى من يحبه، والفرق بين ملك المال وملك الجاه أن معنى المال ملك الأعيان، ومعنى الجاه ملك القلوب، أما علاج الجاه فصعب شديد؛ لأنها مشربة بالنفاق والرياء والكذب والتلبيس والعداوة والحسد، وعلاج هذا المرض فريضة، وينقسم إلى علمي وعملي:

أما العلمي: فأن يتأمل في آفة الجاه في الدين والدنيا، فإن صاحب الجاه يصبح في غم ويمسي في هم؛ لأنه يلزمه مراعاة القلوب، ورضا الناس غاية لا تدرك، ويقصده الحساد والأعداء، فيكون أبدا في التعب والعذاب في دفع ذلك؛ إذ لا يكون آمنا من مكر الله تعالى، ولأن الجاه يتعلق بالقلوب وهي كاسمها تتقلب كثيرا[1] كالموج في البحر، وأخسس بعزٍ ودولة يكون بناؤه على قلوب جماعة من

(١) قال الشاعر: (ما سمِّيَ القلب إلا من تقلُّبه).

المرائين، وحالة خاصة وولاية قابلة للعزل، وبعزلها ركض البريد فيعزل في لحظة وتبطل ولايته، وتزول حشمته، فينحل من هذا. إن صاحب الجاه أبدا في تعب ونصب وقد عرف العقلاء قاطبة شارقة وغاربة أن لو تيسرت مملكة الدنيا والرياسة العظمى لوجدانه لا يهنأ عيشه، ولا يصفو عن الكدورات والحوادث، ولا يسوي جميع ذلك الفرح واللذة حسرة الفوت؛ فإنه إذا مات تقطع قلبه حسرات، وعن قريب لا يبقي الخادم والمخدوم، ولا الراكب والمركوب.

ومن يك ذا باب منيع وحاجب فعما قليل يهجر الباب حاجبه[١]

فأي قدر لولاية ومملكة في أيام معدودة هي عرضة الزوال والإبطال؟! وأي عاقل يبيع ولاية الآخرة بولاية أيام معدودة؟!.

وأما العملي فأمران: أحدهما: أن يهرب من الموضع الذي فيه جاهه فيذهب إلى موضع لا يعرف ليسلم من عاقبة ذلك، والآخر: أن يسلك طريق الملامتية[٢] فيتعاطى أمرا يسقط من أعين الناس جاهه وحشمته لا على وجه يأكل الحرام ويفعل الزنى والفساد، وينهمك في الشهوات كقوم يسمون أنفسهم الملامتية، مثال ذلك: كان زاهد رباني زاره ملك من الملوك فتطل بإسقاط حرمة نفسه، فكان يأكل البقل والسمك بالشره والحرص، ففسد اعتقاد الأمير فيه وانصرف عن زيارته، وآخر كان قد ركب على قصبة مثل الصبيان وطاف في البلد حتى سقط الجاه عن نفسه، وآخر جعل في القدح شرابا على لون الخمر حتى يظن أنه خمر فيهجرونه ويعرضون عنه.

---

(١) البيت من بحر الطويل.

(٢) الملامتية: من لا يظهرون شيئًا مما في بواطنهم، فقد يرتدي أحدهم خاتمًا من حديد كالمجوس ليدفع عنه أعين التوقير والتبجيل من الصالحين والعامة لما يرون منه من هندام أهل التقوى والطاعة، فكأنه يرتكب أقل الضررين ليحفظ حاله مع ربه ويصون إيمانه بإذن الله تعالى.

الباب الرابع عشر

في علاج الكبر والعجب

أما الكبر فاستعظام النفس، واستكبار حالة نفسه، وينظر إلى غيـــره بعـــين الاحتقار، وعلامته على اللسان أنا وأنا، وهو خصومة مع اللّه تعالى، «فالكبرياء ردائي والعظمة إزاري»، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»، والذنب الذي لا ينفع معه طاعة: الكبر، وهو خلق من أخلاق القلب، ينتفخ صاحبه بريح النشاط فينظر إلى الناس نظرة البهائم، وقيل: يا رسول اللّـــه، مـــا الكبر؟ قال: «سفه الحق وغمط الناس»، وتفسيره أن لا يقبل الحق فينظـــر إلـــى الناس بعين الحقارة والازدراء، ومن استولى عليه الكبر وشره الـــنفس فيرضـــى لنفسه ما لا يرضى للمسلمين، ولا يمكنه أن يقلع عن الحسد والحقد[1]، ولا يمكنه كظم الغيظ فيكون أبد الدهر في عبادة نفسه، وإصلاح أمـــره، ولا يـــستغنى عـــن الكذب والنفاق، ومثال المتكبر مثال غلام لبس قلنسوة الأمير وجلس على ســـرير الملك، فانظر إليه كيف استحق ضرب الرقبة.

ثم اعلم أن التكبر على أنواع: فمن متكبر بالمال، ومتكبر بالقوة، ومتكبـــر بالعلم، فلا يخلو متكبر عن هذه الأشياء.

علاج ذلك أمران اثنان: علمي وعملي، أما العلمي: فأن يعرف اللّه سبحانه بالذات والصفات حتى يعلم أن الكبرياء والعظمة تليـــق بجـــلال اللّـــه دون العبـــد الحقير. والثاني: أن يعرف نفسه حتى يعرف أنه أرذل عباد اللّه تعـــالى، وأحقـــر وأضعف الخلق، ويتفكر في هذه الآية: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ

---

(١) فهو يرى أن كل شيءٍ حسنٍ عند غيره هو أحق به منه؛ لأنه يرى لنفسه من المكانة ما لا يراه لغيره.

خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [عبس: ١٧ - ١٩] فإن اللّه سبحانه وتعالى قد عرف الآدمي حالة نفسه، ويعلم أنه أقل شيء وأحقر شيء كان عدما محضا لم يكن له اسم ولا جسد، ثم خلق من التراب الذي هو أخس الأشياء، والنطفة والعلقة قطعة ماء ودم خلقه منها، ولا شيء أخس منه فأصله التراب الذليل، والماء المنتن، والدم النجس، وكانت قطعة لحم، لا نطق، ولا سمع، ولا بصر، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني من جوع، ثم خلق تفضلا منه سمعه وبصره ونطقه، ورزقه وسَوَّى أعضاءه من اليد والرجل، فانظر في أول أمره ثم اعطف في آخره حتى يتساهل الكبر والحقد، وهو محتاج إلى أن يستنكف من نفسه[1] وأحمد أمره أن اللّه تعالى أدخله في هذا العالم، ودفع عنه آفات الجوع والعطش والمرض والبرد والألم والتعب، ودفع عنه المحن المختلفة، وقضي عليه من البلايا ما تهون عنده المنايا من العمى والخرس والبكم والجنون والجذام والبرص والصرع والحر والبرد والفقر والفاقة؛ حتى لا يأمن على نفسه ساعة فيخاف أن يموت أو يعمى، ويجعل منفعته في الأدوية المرة حتى لو استروح في ثاني الحال يتعذب ويتألم في الحال، وجعل مضرته في الأشياء اللذيذة حتى لو استلذ وتنعم في الحال يتألم بمنفعة ذلك في ثاني الحال، وآخره أن يموت وينتن وينتفخ في ساعة يفر منه ابنه وزوجته ووالده، فلا يبقى له سمع ولا بصر ولا قوة ولا جمال فيكون جيفة منتنة، ويصير نجاسة في الأرض في بطون الحشرات والهوام، ويصير ترابا ذليلا مهينا، ولو بقي على هذا الحال لكان أنفع له، وفي هذا المقام يكون مساويا للبهائم، ولم توجد هذه الدولة، بل يحشر غدا وينشر ديوانه ثم إلى الجنة أو إلى النار بعد أن يسأل عن أعماله حرفا حرفا، فيقال له: لِمَ فعلت؟ ولِمَ قلت؟ ولِمَ جلست؟ ولِمَ نظرت؟ فإن لم يخرج عن عهدة ذلك فيقول: ليتني كنت كلبا أو خنزيرا أو ترابا؛ فإن هؤلاء قد سلموا من عذاب النار.

---

(١) أي: لا أن يستنكف عن التواضع لربه وللناس، بل أولى له أن يحتقر نفسه ويستقل شأنها وأصلها ومآلها.

الباب الخامس عشر

في علاج الرياء

وحقيقة الرياء: طلب المنزلة في قلوب الخلق، يفعل العبد عبـــادة، ويبنـــى مسجدا أو رباطا، ويتصدق بصدقة ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه، ويكـــون مقصده رؤية الخلق دون رضا الرب، فإن كان مقصده محمدة الخلق فقـــط فهـــو مشرك، والرياء كبيرة عظيمة، قال ﷺ: «لا أخاف على أمتي شيئا كما أخاف من الشرك الخفي ألا وهو الرياء».

علاج ذلك: شديد لامتزاجه بقلب الآدمي وترسخه فيه، وسبب صـــعوبته أن الآدمي منذ كبر ونشأ بين الناس رآهم يتراءون فيما بينهم، ويزين بعضهم بعضا، ويمدح بعضهم بعضا، وعلاجه علمي وعملي.

أما العلمي: فأن يعلم ضرورة أن كل ما يفعله الآدمي إنما يفعله لوصـــول لذة إليه في الوقت، أو في ثاني الوقت، فإذا علم أن العاقبة وخيمة وجب أن يترك تلك اللذة في الحال، كما إذا خلط السم في العسل، وإن كان حريصا عليه ولكن في الحال يحترز عنه، وأصل الرياء ثلاثة أشياء: الأول: محبة الثناء. والثاني: خوف المذمة.والثالث: الطمع في الناس، أما ثناء الخلق فيكسره بالفضيحة على رؤوس الملأ ويُنَادي منادٍ: يا مرائي يا فاجر! أما استحييت مني؟ إنك بعت طاعـــة ربـــك بثناء الناس، حفظت قلوب الناس ولم تبال بغضبي، اخترت رضا الخلق على رضا ربك وتباعدت من ربك وتقربت إلى الخلق مثلك، فالعاقل إذا تأمل في شيء مـــن ذلك يعلم أن ثناء الخلق لا يساوي هذا، والآخر يتفكر ويقول: لو لم يكـــن ريـــاء لكنت رفيق الأنبياء والأولياء في الجنة، فتأخرت بسبب الرياء إلى منزلة الشياطين ورضا الخلق لا يحصل، وما الذي بيد الخلق؟ لا الرزق ولا العمر ولا ســـعادة ولا كرامة، فمن الجهل أن أشتري غضب الله برضا هؤلاء القوم.

الباب السادس عشر

في علاج مذمة الخلق

فنقول إن كان اللّه معي فلا يضرني ملامة الخلق، فإن كنت مقبولا عند اللّه فلا يضرني رد الخلق، وإن كنت محبوبا عنده فكيف يضرني بعضهم، وإن كنت مبغوضا عنده فلا ينفعني ثناء الخلق، فإن كنت مخلصا في طاعة اللّه فيسخر اللّه القلوب لأجلي، وإن كنت مرائيا فسيفضحني، فما أضمر أحد شيئا إلا سيظهره على صفحات وجهه يوما[١].

الباب السابع عشر

في علاج المذموم

من أراد أن يصلح خلقا من أخلاقه فليس له إلا علاج واحد، فكل ما يأمره الخلق يخالفه ويفعل ضده، مثلا لو كان بخيلا فيجود على خلاف نفسه ليتعود ويتمرن عليه، والشهوة يكسرها بالمخالفة، فإن كل شيء ينكسر بضده، مثلا علة الحرارة تنكسر بالبرودة، فعلة الغضب تعالج بالحلم، وعلة التكبر تعالج بالتواضع والبخل بالسخاء، فمن تعود الأعمال الحسنة وتخلق بأخلاق الكرام يحسن خلقه فالخير عادة والشر لجاجة[٢]، وكل ما يفعله الآدمي تكلفا يصير طبعا له[٣]، فإن الصبي يهرب من المكتب والمعلم يضربه حتى يصير ذلك التعليم

---

(١) قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإنْ خَالَها تخفى على الناس تعلمِ

(٢) أي: الشر خفقان وضعف واضطراب علىٰ خلاف الأصل.

(٣) ومن قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه –: إنما الحب بالتحبب، والحلم بالتحلم، والصبر بالتصبر.

طبعا له، فإذا بلغ فتكون همته ونهمته العلم، فترى القوم المشغوفين بالشطرنج والحمام والقمار يتعودون ذلك حتى تزول لذة الدنيا فيها، ومن تعود أكل الطين يعتقد أنه من طيبات الدنيا.

الباب الثامن عشر

في إحضار القلب في الصلاة

وغفلة القلب في الصلاة لوجهين: أحدهما ظاهر، والآخر باطن، أما الظاهر فإن يصلي في موضع يبصر فيه شيئا أو يسمع فيه شيئا فيشتغل قلبه بذلك؛ فعلاجه أن يصلي في الخلوة بحيث لا يسمع شيئا ولا يكون فيها نقش ولا كتابة واتخذت العُبَّاد الزوايا في بيوتهم حفظا لقلوبهم. وكان ابن عمر - رضي اللّه عنهما - إذا أراد أن يصلي يخرج السيف والمصحف والمتاع عن بيته، فإن كان له شغل فالتدبير أن يقدم ذلك الأمر حتى يفرغ قلبه للصلاة، ولهذه الدقيقة قال ﷺ: «إذا حضر العَشاء والعِشاء، فابدءوا بالعَشاء»؛ ليدخل في الصلاة على بصيرة فارغ القلب، ويحضر قلبه للذكر أيضا وقراءة القرآن، فإن غلب أمر على قلبه فليشغل قلبه بالذكر، فإن لم يندفع فالعلة صعبة فلابد من تناول مسهِّل، والمسهل ترك ذلك الأمر بالكلية فإن لم يطق ذلك فلا يبرأ عن هذا المرض أبدا، فيكون مثاله مثال من جلس تحت شجرة تأوي إليها العصافير ويصوتون فيعد حصًا لينفر به العصافير كي لا يسمع أصواتهم، فهو سوداء ومالخوليا، فإنهم يطيرون، وعن قريب يعودون فإن أراد أن يتخلص منهم، فالتدبير أن يقطع الشجرة حتى ينجو منهم، شاتان وخروف والمعنى معروف، تم الكتاب.